السيدة ذات اليد المرسومة

كريستين فونّيكه

ترجمة: نيفين فائق

تعيّن على موسى اللاهوري أن يوقع على ثلاث نسخ من شهادة ملكية موثقة للإسطرلاب الذي صنعه. ثلاث مخطوطات كبيرة وجميلة، أمر الزبون بإعدادها، ومدّها بطريقة احتفالية على طاولة في حديقته، تحت مظلة، بدت مثل كل مقتنياته القيّمة، عزيزة جدًا على قلبه. عندئذٍ مدّ إلى المُعَلِّم موسى يده بريشة الكتابة تحت وطأة بعض الأحاديث المختلفة. كتم الفلكي تنهيدةً، ونقش اسمه الكامل ثلاث مرات؛ الأستاذ موسى بن زين الدين قاسم بن قاسم بن لطف الله المنَجِّم اللاهوري.

كان منزل الزبون على الطريق التجاري القديم، في منطقة كئيبة بين سوق بانفيل وميناء بانفيل. تضمنت المنطقة حوانيت كبيرة، وكنيسة برتغالية، كان قد ضمها إلى مشترياته، وصار يخزن فيها الآن أيضًا البضائع، من صباغ النيلة، والأفيون، واللوحات القماشية؛ كان المُعَلِّم موسى يعرف كل ذلك لكنه عاد ونسِيه منذ زمن. لقد جاء بالأمس خصّيصًا لجلب الإسطرلاب من مانباي، حيث كان يقيم، وأمضى بالفعل ليلة هنا. على مدى ساعات، بينما لم يخلُ الأمر من وجود الطعام الطيب، أخذ الزبون – الذي كان هو الآخر فارسيًا - يتباهى بمنزله، وحياته، ومهاراته، ولطفه، وأطفاله، وبضائعه، ويفصّل القيمة الشرائية لكل ذلك. ثم بدأ في المساومة على سعر الإسطرلاب، على الرغم من أن البيع قد تم بالفعل بالمكاتبة، ولم يعد هناك أي شيء يمكن المساومة عليه. في تلك الأثناء كان قد اصطحب المُعَلِّم موسى في البداية في كل أرجاء البيت لاستعراض روائعه، وأخيراً عبر هذه الحديقة، المسيجة بأسوار عالية، غيبتها إلى حد ما عن وجودها المغلوط في وسط تلك المنطقة القبيحة. مر به على جدول مائي صغير مبلَّط، بين الورود، وأعشاب الخبّيز العَبِقة، وتحت أقفاص عصافير مرفوعة على أعمدة مخددة بدقة، دائرًا به في تلك الدائرة دورانًا. كانت الطرقات مبتلة. وحتى المظلة كانت مبتلة، وتكوّن تحتها البخار. بدت مسألة هطول الأمطار خارج الموسم المقرر لها "ضد مبادئ علم الفلك" – كما أخذ الزبون يشرح بلغة العارف وبصورة مزعجة للمُعَلّم موسى – مربكة جدًا بالنسبة له، حتى أنه لم يستطع أن يستخلص أي تبعات، فظل يتلكأ بعناد في هذا الجو الرطب.

جاءت أصوات صياحٍ وطَرْقٍ من جهة الحوانيت. ربما كان يتم بناء سقف جديد للكنيسة. نظر المُعَلِّم موسى للأعلى داخل قبة المظلة الداخلية الزرقاء، وإلى البخار الذي كان يحوم حول رأس الزبون. كان هذا الزبون يرتدي طبقات عديدة من الأثواب، الواحدة فوق الأخرى، وفي عمامته دبوس مرصع بحجر اليشْم، وياقوتًا في أذنيه، وكان يشع بهجةً بالغة. بانحناءة أعاد إليه موسى ريشة الكتابة.

كانت شهادة الملكية وثيقة لا جدوى منها. قصاصة ورق كان بالإمكان استبدالها في أي وقت. فقد كان موسى بالأساس يحفر توقيعه في النحاس على كل آلاته. وكان الزبون قد صنع للإسطرلاب، من كل ما هو جيد ومكلف؛ من خشب الأبنوس، والفضة، والعاج، وقليل من الورنيش الصيني، حاملًا لا جدوى منه، تمامًا مثل تلك الشهادة. فقد كان الإسطرلاب قرصيًا صغيرًا بحجم اليد الواحدة، فلا يمكن استخدامه إذا ما تم رفعه على حامل. لكن الزبون لم يكن ليستعمله على أية حال. فهو لا يفهم شيئًا عن السماء ولا عن الرياضيات. خطر لموسى إن هذا الزبون الممل، لا يكاد يمكنه في أحسن الأحوال التمييز بين القمر والشمس، وبين الليل النهار، وربما حتى لا يمكنه ذلك دائمًا. إنه يقتني الإسطرلابات ليتفاخر بها. وإن واحدًا أصليًّا من صنع موسى اللاهوري مناسب جدًا للتفاخر، حتى ولو عُرض واقفًا بغباء على حامل. فقد كان الطلب على إسطرلاباته كبيرًا. وقد موّلت عملية بيع واحدة جزءًا لا بأس به من رحلته، من جايبور إلى مانباي، وعبر البحر إلى المدن المقدسة.

لساعاتٍ جعل الزبون خادمًا يمشي خلفه حاملًا الإسطرلاب بمنديل على الحامِل؛ عبر المنزل، وعبر الحديقة، وأخيراً تحت المظلة الرطبة. وها قد صار أخيرًا ملكه، موضوعًا على طاولته. تحدث بعبارة شعرية: *تجمدت مظلة السماء في صورة دقيقة*، إلى آخره. كم سمع اللاهوري ذلك الكلام من قبل. انحنى مرة أخرى.

ظهر خُدّام جدد. لم يجيئوا بالأموال، بل بفواكه في أوعية كبيرة، ومشروب كحولي إنجليزي مهضِم في كؤوس إنجليزية. تحدث الزبون بثقة عن الإنجليز الذين يُفترض أنه يتاجر معهم، وأضاف الكثير من المجاملات، ثم كلمة "العضادة". كررها عدة مرات من دون وضعها في الجملة المناسبة لها. حتى أنه مال إلى المُعَلِّم موسى وهمس، وشفتاه تكاد تلمس أذنه متوسلًا: "العضادة".

فقال موسى: "أي نعم، إنها بالخلف".

لأول مرة منذ سفره شعر بالحنين إلى جايبور. فهناك لم يكن أحد ليجرؤ على أن يظل يكرر عليه باستمرار قول "العضادة"، بهذا الأسلوب الأحمق عديم السياق. بدا الأمر كأن أحدًا يكرر كلمة "نعل، نعل" على مسمع إسكافي. يبدو أن "العضادة" هي الكلمة الوحيدة في هذا العلم، التي كان الزبون يعرفها؛ لذلك أصر على أن يرمي بهذه البذرة، لربما شد بها طرف حديث كامل. أخذ من الخادم المنديل الصغير، الذي كان قد استخدمه للإمساك بالإسطرلاب، وأمسكه هو به، ورفعه أمام أنف صانعه، وصاح مرة أخرى "العضادة"!

كان موسى اللاهوري يكره أن يرفع أحد شيئًا أمام أنفه. فمنذ فترة لم يعد قادرًا على أن يرى بوضوح، ما يقترب بشدة من عينيه. كان سنه يقترب من الخمسين. وهو يعلم أن الناس في سنه يبدأون في رؤية الأشياء القريبة بشيء من التشويش. لم يكن هذا حتى مرضًا يتطلب طبيبًا، بل مجرد عقاب صغير للغاية، وغير شخصي من الله، يصيب الجميع، ويتصالح معه الجميع، راضيًا أم غير راضٍ. ولكن لم يكن الجميع يصنع الإسطرلاب الأفضل في هندوستان. استخدم المُعَلِّم موسى حقه في أن يبدي استياءه.

أوقف الإسطرلاب على مسافة شبه قريبة من وجهه، لا شديدة القرب، بحيث تتشوش الرؤية تمامًا، ولا شديدة البعد، لدرجة تمكِّن الزبون من ملاحظة أن شخصًا هنا ينظر للأشياء مع مد ذراعه طويلةً، كما يفعل العجائز. دقق النظر إلى الإسطرلاب بأسى. كانت تلك آلة جميلة الصنع، انتهى بها الحال في منزل رجل أبله. أدارها موسى، ووضع سبابته على العضادة وحركها بحيث تتقاطع مع مربع الظل.

قال بهدوء: "إذا أردتم تحديد ارتفاع الشمس فوق الأفق، فقوموا بتحريك العضادة حتى يسقط شعاع الشمس عبر ثقبي الهدفتين على يدكم، ثم اقرأوا درجة ميل الزاوية. عندئذٍ قوموا بتدوير الإسطرلاب، والبحث عن موضع الشمس على دائرة الأبراج، ثم ثبتوا العنكبوت بهذه الطريقة، بحيث تقف الشمس على المقنطرة بالارتفاع المُقاس. مع ملاحظة وجود ست درجات في كل دائرة. في الليل يمكنكم إتباع طريقة مشابهة: تبحثون عن ارتفاع نجمين، كما يُظهِرهما العنكبوت، فتضعونه على ارتفاع النجوم كما تراها عيناكم. حينئذ تستخلصون الوقت بواسطة المؤشر على الحجرة. أديروا الشمس على العنكبوت. اجعلوا الأفق الشرقي غطاءً لها. عندئذ تعرفون متى تشرق الشمس - الشمس الحقيقية التي في السماء - فتعرفون طول اليوم الحقيقي. مسألة مفهومة بديهيًّا.

خيم الصمت على السرادق. سقطت قطرة ماء من ذروة القبة السماوية ذات اللون الأزرق النيلي على الطاولة. ظهر مدير الزبون وأحضر المال أخيرًا. شعر المُعَلِّم موسى بالحاجة إلى شرح جميع استخدامات الإسطرلاب، حتى لو استغرق ذلك عشر ساعات. أداره في يده، وجعل المؤشر يدور فوق العنكبوت، وتنفس نفسًا عميقا. فخفض الزبون رأسه قليلاً.

قال موسى: "لتكن هي مشيئة الله".

نزل مع خادمه إلى النهر، الذي كان اسمه أيضًا بانفيل، وصعد إلى المركب الذي كان ينتظره هناك، وانطلق عائداً إلى مانباي. كان مركبًا صغيرًا بائسًا، ليس أفضل من مركب الأمس. وقد بدا شراعه المائل المثلث شبهَ مقلوب، ولم يكن صاحب المركب، ولا الفتية الذين يخدمونه يبعثون على الكثير من الثقة. كان النهر موحلًا ومُرَمّلًا، وقد جرف الطمي ضفافه، وكانت مياهه بنِّية. وبينما كان المركب يشق طريقه جاهدًا عبر كل هذه القاذورات، همهم المراكبي بلغة الشارع في مانباي، على الأرجح بسبب ضعف الرياح، أو طلبًا للحصول على المزيد من المال. ربما كانت تلك أيضًا لغة الشارع في بانفيل. فلكل بقعة في هندوستان لغة مختلفة. حتى المُعَلِّم موسى لم يستطع أن يتعلمها جميعها. فرد بغلظة باللغة السنسكريتية، قائلًا: "إذا تم الإرساء بسرعة، يتبع ذلك مكافئة صاحب المركب." فنظر إليه المراكبي نظرة تبجيل. الأرجح أنه لم يفهم ولا كلمة، واعتقد أن الراكب يصلي.

وقف المُعَلِّم موسى عند مقدمة المركب، بعيدًا بقدر الإمكان عن الشراع. أخذ المركب يجاهد مبحرًا في اتجاه البحر. كانت هناك جيفة ماعز عالقة بين الأشياء الطافية، وكان طائر أسود يأكل منها. للحظة خطر لموسى، إنها لمجازفة أن يبحر بكل أموال الزبون حول العالم. حمدًا لله إن معه خنجرًا وسيفًا، كما أن مالِك، خادمه، فتى شديد. اضطر فجأة لأن يتخيل كيف يهاجمه صاحب المركب من الخلف، وكيف يطعنه هو فورًا، مسرورًا، فيصبح هو بهذه الطريقة صاحب المركب. وكيف يلقى بجثة الشرير في الماء، فيظل منذ هذه

اللحظة على قاربه البائس، تحت اسم مستعار، وربما متنكرًا في زي هندي، يتحاشى الجزر السبع، عامًا بعد عام، ويعيش حياة القراصنة، بعيدًا عن منزله وعائلته، وعمله .

منذ أن بدأ بصره يتراجع - بينما صار يرى نفسه أحيانًا كأعمى، يتشاجر للحصول على المساعدة، مثل رجل عجوز يتمنى الجميع وفاته وشيكًا - غالبًا ما كانت تطارده الأوهام. لقد ظل لعقود يقوم بحساب النجوم ورصدها في مرصد أمير جايبور. ولعقود، كانت توجد فجوات بين ما يتم ملاحظته وما تم حسابه، لا يمكن سدها، مهما أعاد المرء الحساب والمراقبة من جديد. مرة يجاهد في الأمر. ومرة تسلبه تلك الفجوات النوم. أما الآن فقد صار ينام طالما أتيح له ذلك، وفيما عدا ذلك يشخبط جداول يومية لجميع النجوم، كما تبدو للرائي في لحظتها. ويصنع الإسطرلابات من أجل الأموال الحبيبة. وهكذا تستمر الحياة. يصير المرء أسمَن وأكثر كسلًا. لا عجب متى صرخ الوجدان من أجل التغيير.

ابتسم اللاهوري متساهلًا مع نفسه، فسرعان ما سيكون في شبه الجزيرة العربية. هناك سيجد المعنى. يقال إن شبه الجزيرة العربية هي بيت المعنى؛ معنى السماء والأرض، ومعنى الله، ومعنى الإنسان، ومعنى كل شيء. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ينطق عقله فيها بكلمة "المعنى"، بالفارسية، وبالعربية، وباليونانية، وباللاتينية، وبلغة الشارع في جايبور، ثم خطر له "المعنى" بالسنسكريتية؛ كل الكلمات العشرين، التي قد تعني في السنسكريتية "المعنى"، أو ربما أيضًا "اللامعنى"؛ فالسنسكريتية لغة غريبة. نادى خادمه، محذرًا إياه من أن يقع عند الشراع مرة أخرى كما حدث بالأمس، بسبب طيشه اللانهائي.

تذكر ذلك الصباح في جايبور عندما اتخذ قرار السفر. كيف مسَّ روحَه نور، وكيف أمسك بمالك، وركض عبر البازار الطويل، طائرًا معطفه، عبر بوابة سمبار إلى الحرية. هكذا كان يحب أن يتذكر الأمر، لكن ذلك لم يكن يمت للحقيقة بصلة. فقد قضى شهورًا يتفاوض مع البلاط، قبل أن يؤذن له بالعطلة. كما ظل يتجادل لمدة نصف عام مع العائلة؛ مع زوجتيه زبيدة وجوهر، ومع أبنائه وزوج ابنته، ومع ابنته الكبرى، التي لم تر في الجزيرة العربية سوى الموت، فظلت تنوح، وتحولت إلى لغةٍ شعريةٍ فظيعة، حتى تركوه وشأنه أخيرًا. كما استغرق أسبوعًا ليواسيَ مالك، الذي أخذ الفزع ينمو بداخله تجاه الجزيرة العربية، حتى أصابه الإسهال. تبع ذلك حفل وداع استمر عدة أيام، شارك فيه كل فارسي من جايبور، وروى قصصًا عن شبه الجزيرة العربية، كان قد سمعها من الفرس الآخرين. وفي النهاية تطايرت الأخبار كذلك إلى الهنود، الذين أدركوا أنه ينوي السفر عبر مانباي. فبدأوا يكتبون الرسائل، التي كان على المُعَلِّم موسى حملها معه؛ رسائل عائلية، ورسائل تجارية، ورسائل علمية، ورسائل من أحد البراهمة إلى الآخر. أما ابنته الصغرى نيّرة، التي كان بإمكانها السماح لنفسها بأي شيء، فقد جهّزت قائمة طويلة ومدهشة من الكنوز العربية، التي سيتعيّن عليه شراؤها، أو إيجادها، وجلبها معه. لكنَّ عاصفةً رمليّةً عطّلت الرحلة. ثم عطّل البراهِمة الرحلة، لأن رسائلهم لم تكن جاهزة بعد. كما حاولت جوهر تعطيلها، لأن كل شيء بدا لها فجأة باهظ الثمن. حتى البرتغالي البائس، الذي كان يعيش في المرصد منذ عقود، كتب رسالة إلى برتغالي آخر، كان قد سافر ذات مرة إلى شبه الجزيرة العربية، ويُحتمل أنه لا يزال يعيش هناك. ثم حالت عاصفة رملية أخرى دون السفر. وحملت نيّرة الورق إلى مخبئها السري، لتبدأ قائمة ثانية. أعدت زبيدة وجوهر حفل وداع جديد. هذه المرة انطلق مع مالك الذي لم يتوقف عن النواح، وسافر، وسافر، مع العديد من القوافل، وعلى دواب كثيرة مختلفة، كان كلٌّ منها غير مريح على طريقته الخاصة، تحت وطأة الحرمان والانزعاج الشديد، حتى وصل ذات يوم

إلى مانباي. هنا كان الأوان قد حان لقتل الوقت وكسب المال. فإن السفينة المبحرة إلى جدة لم تكن لتغادر قبل عدة أسابيع.

كان مالك يحدق في البحر. فإذا ما راقبه موسى في ذهوله طويلًا، بدأ هو نفسه يصاب بالذهول، وتشوّش رأس مالك تمامًا. لم يكن ذلك يعجبه. فأجبر نفسه على التفكير في قارب المتعة المدجج بالرايات، في بحيرة قصر أمير جايبور، والذي لم يكن مذهِلًا بأي حال من الأحوال. كانت الرياح ساكنة تقريبًا. لم يكادوا يتقدموا. ضبط المُعَلِّم موسى الوقت، كما لو أن ذلك سيسرع الأمور. من أجل ذلك استخدم إسطرلابًا يعلقه حول عنقه؛ قطعة قديمة من صناعة والده، لم تكن لتصمد في المقارنة أمام ما يصنعه هو، لكنه ما زال يحب استخدامها. للاستفادة من الوقت الميِّت، جلس القرفصاء وفككه. فإنه إذا تم تعليقه حول الرقبة لفترة طويلة، علقت به الدهون، وتوقَّف عن العمل. فك بإبهامه الحصان من الإبرة، ورفع المؤشر والعنكبوت، وفكك جميع اللوحات والأم عن العضادة، وبدأ بتنظيف كل شيء بالمنديل بحذر. ثم ما لبث أن صرخ طالبًا نظّارته. فقد بدت كل لوحة مثل الأخرى. كان الأمر مهينًا ومخزيًا.

أحضر مالك النظارة. يوجد خمس مثلها في المنزل في جايبور. فقد أثار المُعَلِّم موسى ضجة كبيرة حول مسألة شراء النظارات. كانت جميعها غير موَضِّحة، وغائمة. إحداها تشوّه الصورة تمامًا، حتى تبدو الكتابة كالخطوط مرة، وكالدوائرة أخرى، بالتناوب، حسب كيفية حملها. وثلاث منها كانت عدساتها مزدوجة، واحدة مزودة بمقبض، والثانية قارصة على الأنف، والثالثة مثبتة في الأذنين؛ ثلاثتهم مجرد عدسات مكبرة، واحدة مصنوعة من زجاج غائم، واثنتان من البلور المعكر. حتى تلك التي احتفظ بها مالك في حقيبته، كانت عدستها كذلك من البلور، وللأسف كانت هي الأفضل. فقد صنعها - وفقًا للبائع في جايبور - رجل تقي في كلكتا البعيدة. كان نحاس الإطار والمقبض مصنوعين بصورة مجازيّة للغاية. الفيل الإله يمسك العدسة بخرطومه، ويمد بها يده بوقاحة للمستخدم، كما لو كان يقول له: "أيها الخُلد، أنت بحاجة إلي". وعلى أفخاذه السمينة التصقت اثنتين من حوريات الجنة العاريات. كان المقبض كله عبارة عن أجسام متشابكة. لا يكاد المرء يستطيع أن يقبض يده على ذلك الصنيع الرديء كثير البروز. تنهد موسى اللاهوري ونظر إلى اللوحات، ووضعها في الأم، وربط أجزاء الآلة ببعضها، وعلقها حول رقبته، وأعاد النظارات إلى جراب مالك مشمئزًّا.

تمايلت السفينة بين مرفأ بانفيل وجزيرة غرابوري، التي حجبت منباي. انتحب صاحب المركب قليلاً، ثم استلقى للنوم في ظل الشراع الهزيل. بينما كان فتيته قد سبقوه للنوم منذ مدة.